أهم علاقة في القصة هي العلاقة التي قامت بين السلطان والسفير الإنجليزي . وهي علاقة سياسية بالأساس ، وليست علاقة شخصية يُنتظَر منها أن تنموَ وتتطوّر لتحقيق أهداف بعينها ، بل هي علاقة سياسية تمثيلية تُمثّل فيها كل شخصية الدولة التي تنتمي إليها خدمةً لسياستها المرسومة . إنها علاقة بين دولتين ؛ إنجلترا والمغرب ، دولة قويّة ومتسلِّطة ودولة ضعيفة مستَهانَة ، دولة استعماريّة ودولة مرغوب في استعمارها . إن دلالة القوة في دولة إنجلترا تكمن في **لغة الخِطاب** الذي خاطَب به السفير الإنجليزي السلطان المغربي ، والقائمة على الإنذار والتهديد وطلب تنفيذ الأوامر في أجل محدود وقصير (يوم واحد) .

إن التأثير الذي أحدثَه السفير الإنجليزي في السلطان يتجلّى في تغييره أحواله إلى الأسوء ، بحيث نزلت به الحَيْرة والكآبة ، بفعل إنذارات السفير وتهديداته ، وقبل ذاك بفعل الطلب الذي طلبه من السلطان والذي يَجهل القارئُ مضمونَه . فالنص لا يَذكُر القضية الكبرى والمتمثلة في الطلب ، وإنما قَدّم بعض الصفات التي تدلّ على أنه طلب يمسّ سيادة المغرب الدينية والسياسية . وهذه الصفات تظهر فيما عبَّرَ عنه **السارد** بقوله : " هَوْل ذلك الطلب وعِظَم أمره ". ولو تمّت تلبية طلب السفير الإنجليزي لضاع الدِّينُ في المغرب ، لِذا وردتْ عبارة في آخر القصة ، عند الحديث عن وفاة السفير وعدم تحقق مراده ومراد دولته ، تقول :" وفَرِحَ الكلُّ بما تَيَقّنوه من حماية الدِّين " أي أن الأمرَ يتعلقُ بإحداث تغيير ديني في المغرب ، وضياعُ الدِّين ضياعٌ للدولة .

إنّ الحوار الذي دار بين السفير والسلطان حوار غيرُ مباشر ، نقله السارد ولم نسمعه من صاحبَيْه مباشرة مما جعله جزءاً من السرد . وهذا لم يُغيِّر صفته من كونه حكاية للأقوال إلى حكاية للأفعال .

يقول السارد : " فلمّا اجتمع به ذَكَرَ مطلوبَه الذي يريد ، وجَعلَ له أجَلاً يوماً واحداً ، وكان ذلك يومَ الاثنين فقال :

- إنّي مسافر لا محالة يوم الأربعاء إمّا بتنفيذ الغرض المطلوب أو بعَدَمه قولاً واحداً ، فاختَرْ لنفسكَ واستَشِرْ في أمرِك ".

إذا أمعنّا النظر في هذا الحوار نجده أبعد ما يكون عن مراجَعة الكلام بين شخصين ، والتي تتضمن في العادة أخذاً وردّاً . إنه أقرب إلى الأمر منه إلى الحوار ، وذلك من خلال صفة التعالي التي تميَّزَ بها خطاب السفير الذي لم يُلقِ بالاً لصفة مخاطَبه ولا لمكانته في بلده ، فخاطبه خطاباً آمراً ، وإن بدا في ظاهره أنه خطاب تخييري بين نعم ولا . وفي كلا الحالين فـ"نَعَمْ" لها ثمنُها و"لا" لها ثمنُها كذلك . وهذا من خصائص خطاب الأقوياء الظالمين للضعفاء المستضعَفين .ثم إن النص يحدّثُنا عن علاقة السلطان بالإنجليز ، والسفير الذي قَدِم إليه ممثّلُهم ، والتي تأسست على الاستغلال الاقتصادي للمغرب ، واتسمتْ بنوع من التنازل من قِبَل المغرب في هذا الجانب مدافعة لهم عمّا هو أكبر من ذلك ، وهو الاستغلال السياسي وتبعاته على مستويات عِدّة . لذلك وجدنا السارد يقول :

" ولم تُفِدْ حيلةٌ ولا سياسة تُدافِعُه زَمناً ما ."

هل استجاب السلطان لطلب السفير ؟ هل نفَّذَ الغرضَ المطلوب ؟ هل استشار المقرَّبين في ذلك ؟ هل اختار نعم أو لا ؟

لم يقم السلطان بذلك كله ، بل التجأ إلى مولاه وخالقه ليَحُلَّ مشكلتَه ، والذي ألجأه إلى مولاه هو تديُّنُه وصلاحُه ، ودليلُ ذلك صيامُه التطوّعي واستعانته بالصالحين وبالتوجّه إلى الله بالدعاء .

العلاقة الثانية في النص هي بين السلطان وأهل الفضل والديانة والصالحين ، وهي علاقة حاكم برعيّته ، وفي هذا النص تصطبغُ بصبغة أخرى ذات بُعد دينيّ خالص وذلك حينما طلب دعمهم ومساندتهم بالتوجّه إلى الله بالدعاء ليكشف ما نزل بهم من بلاء . وهي علاقة تشي بثقته فيهم وتوسّمه خيراً من حُسن صلتهم بخالقهم مما يُيسّر تحقيق الرجاء .

أهمّ التحوّلات التي وقعت في هذه القصة تكشف بِنْيتَها الحَدَثِيّة ، فقد بدأت بالعُقدة المتمثلة فيما طلبه السفير الإنجليزي من السلطان الحسن الأول والتي تطلّبتْ حَلاّ ، وأسباب الحلّ والوصول

إليه كانا تتمة للقصة كلها . هذه العقدة نفسها أحدثَت تحولات على مستوى الشخصية الرئيسة (السلطان) . وحلُّها أحدثَ تحوّلاً على مستوى الشخصيات المُسلِمة كلها .

إنّ التحوّلات التي أحدثتها العقدة (طلب السفير) في السلطان تتمثل فيما أوردهُ السارد بقوله :

" وكان السلطانُ يومَه ذلك صائماً ، فبقيَ مُتَحَيِّراً يَنظُرُ في عاقبة ما طُلِبَ منه ، لم يَبرَحْ مِن مَحلِّه ذلك اليوم لِما أصابه مِن هَوْل ذلك الطَّلَبِ وعِظَمِ أمرِه ، ولم تُفِدْ حيلةٌ ولا سياسة تُدافِعُه زَمناً ما ، فباتَ ليلته يتقلَّبُ ساهِراً مِن أجْلِه ، فحينئذٍ عَزَمَ على الالتجاء إلى مولاه إذْ هو مُجيبُ المُضطَرِّ إذا دعاه ، ومَن يتوكَّلْ عليه كفاهُ ."

كان السلطان صائماً في اليوم الذي جاءه السفير ، أي أنه كان في حالة صفاء روحي وفي طاعة ربانيّة تبعثُ على السكينة والطمأنينة ، ولكن هذه الأحوال عَكّرَ صَفْوَها قُدومُ السفير بمطلبه وتهديداته ، مما جعله يشعر بالحَيْرة والذهول لعِظَمِ مطلوب السفير . لكنه لم يستمِرَّ طويلاً على هذا الحال ، وفكَّرَ في وسيلة للخروج من هذا الوضع وتغييره حتى يتمكن من الرجوع إلى وضعه السابق .

فقرّر الالتجاء إلى الله ، إلى القوة التي ما بعدها قوّة ، والتوكّل عليه لرفع ما هم فيه من غُمّة . فأخذ بالأسباب الشرعية بالتوجه إلى الله بالدعاء ، خاصة أنهم في حال اضطرار ، يقول سبحانه : " أمَّنْ يُجيبُ المُضطَرَّ إذا دعاه ويَكشِفُ السوءَ.."[1]. المهم أن السلطان لم يستجب للسفير ولم يخضع لشروطه، بل التجأ إلى مولاه . ولم يكتفِ بالأسباب الروحية ، بل أخذَ أيضاً بالأسباب المادية ، وذلك في قول السارد : " وعَيَّنَ أُمناءَ بكل مَرْسى يَقِفونَ على ما عسى أن يكون من النفير ."وهذه العبارة تشير إلى توقُّع حدوث هجوم بحري إنجليزي على المغرب . والهجومُ البحري هو أسرعُ هجوم آنذاك قبل اكتشاف الطائرات . فكانت نتيجة ذلك تحقق المراد وحدوث التحوّل المرغوب الذي يقول عنه السارد : " وكان مِن ألطاف الله بالمولى الحسن ومِن رِضاه عليه أَنْ خَرَجَ السفيرُ المَذكورُ للقَنْص يومَ الثلاثاء فنالَهُ ما نالَه مِن الإرهاق وعاد إلى مَبيته فأصبح مَيِّتاً بنوبة قلبية يوم الأربعاء ".

---

[1]- سورة النمل ، الآية : 62.

حتى التحوّل الذي طرأ على السفير والذي نقله من الحياة إلى الممات كان بمثابة حلٍّ لعقدة القصة وحدوث انفراج في أحداثها تجلّى فيما أحدثه موتُ السفير في نفس السلطان والمغاربة عموماً من تحوّل من حال الشعور بالقهر إلى الشعور بالانتصار ، وهو ما عبّر عنه السارد بقوله :

" وأَذَّنَ في الوقت بموته مُؤذِّنٌ صَيِّتٌ ، ووصلَ الخَبَرُ حِيناً للإمام والوزراء وكافّة المسلمين ، وفَرِحَ الكُلُّ بِما تَيَقّنوه مِن حماية الدِّيـــــن ."

لذلك عدّ المشرفيّ هذا التحوّل الأخير علامة دالة على منقبة من مناقب السلطان وكرامة من كراماته ، بل إنه استهلّ نصه بما يُعَبِّر عن استغرابه ، يقول : " ومـمّا يُستغرَبُ ويُعدُّ من مناقبه وكراماته .." ، مما يدلُّ على أننا أمام نص يتضمن غَرابة فُسِّرَتْ بالكرامة التي ظَهرَت على يد السلطان حينما التجأ إلى مولاه . وهذا يَشي بصلاحه واستقامته ، ولا أدلَّ على ذلك من صيامه التطوّعي يوم جاءه السفير الإنجليزي .

ننتقل الآن للحديث عن الثنائيات في هذا النص . والمقصود بها الثنائيات الضِّديّة التي يمكن عدُّها بوابة دلالاته ، وأهمها :

- ثنائية الإيمان والكُفر .
- ثنائية القوة والضعف .
- ثنائية الحق والباطل .

وهذه الثنائيات تعبِّر عن العلاقة التي قامت بين إنجلترا والمغرب آنذاك ممثَّلة في السفير الإنجليزي والسلطان المغربي الحسن الأول .

أما دلالات هذه القصة فيمكن إجمالها فيما يأتي :

- **دلالة تاريخية** : وتتمثل في العلاقات بين الدول القوية والدول الضعيفة في القرن التاسع عشر.

- **دلالة نفسية** : تتجلى في ما أصاب السلطان من حَيْرة وكآبة جَرّاء طلب السفير .
- **دلالة تسلُّطيّة** : تظهر في اعتماد الظالم على قوته المادية لتحقيق مطامعه ، وعدم استحضارِه قدرةَ الله عليه .
- **دلالة حضارية** : تتبدّى في الوجه الأسود للحضارة الغربية المادية التي كوّنتْ ثرواتها مِن نَهْبِها خيرات الشعوب الضعيفة ، بعد احتلال أراضيها واستعباد أهلها .